3-أسلوبية الإنشاء عند البلاغيين
(أبو يعقوب السكّاكيّ أنموذجًا المتوفى 626هـ)

The style of composition among rhetoricians Abu Yaqoub Al-Sakaki، is a mode (T626 AH)

بقلم الدكتورة دنيا عبدالله شاكر

مديرية تربية النجف / إعدادية الجزائر للبنات

Dunya Abdullah Shaker

Najaf Education Directorate/Aljazair high school

doniaabdullah73@gmail.com

ملخص البحث

إن أبا يعقوب السكّاكيّ وكتابه (مفتاح العلوم) تعرضا إلى ظلم وإجحاف كبيرين عن طريق وصفهما بالتعقيد وجفاف الأسلوب، والبحث لا يعدم وجود مثل هذه الصفة، ولكنها لم تكن بذلك الحجم الذي تشير اليه أغلب الدراسات، فضلا عن أن السكّاكيّ كان معنيا في كتابه بأن يضع الحدود ويقسم الأبواب قدر الإمكان لأن كتابه تعليمي بالدرجة الأولى، على الرغم من أن كثيراً من الباحثين والدارسين قد وصفوا جهد السكّاكيّ بأنه مدرسي وتقليدي، فيمكن أن نعد هذا الجهد يمثل ارهاصاتٍ لبداية مراحل جديدة تنحو بالبلاغة منحاً أسلوبياً ولو على سبيل الخطوات الاولى .

كلمات مفتاحية: مفتاح العلوم، علم المعاني، أساليب الإنشاء، البلاغة، ثقافة السكّاكيّ، بنية توليدية، أسلوب الطلب، دلالات مضافة أو دلالات منتجة، الاسلوبية.

Abstract:

Abu yakoub and his book,"Key to science", have been exposed to great prejudice and injustice to his rather sophisticated and dry approach, yet the researcher dose not seem to negate the presence of such characteristic. however, its can be argued that it was not as significantly prominent as most studies have claimed .

Ideally, he was rather concerned to create boundaries and division in his book as much as possible. Nonetheless, it cannot be denied that this production is a number one highly educational book.

While numerous researchers and scholars have characterized Al-Sakaki's endeavor as scholastic and traditional, we can nonetheless view this effort as a precursor to the initiation of new phases that steer rhetoric towards a more stylistic direction, even if only in its initial stages.

Keywords: Key science, Semantics, Construction methods, The art of eloquence, Alsakaki culture, Obstetric structure, Order style, Added Semantics, Stylistics.

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين.

لقد مرّ علم البلاغة بمراحل مختلفة إلى أن تحددت معالمه، واستقرت قواعده، ولقد مثّل كلّ مرحلة من هذه المراحل عدد من الدارسين الأفذاذ الذين أسهموا في تأسيس هذا العلم وتطويره، واجتهدوا في وضع النظريات والتصورات والمصطلحات التي تخصّه، ويُجمع الدارسون على أنّ علم البلاغة شهد أربع مراحل أثناء مسيرة تشكيله، إذ كانت مرحلة

النشأة التي احتضنت بذور البلاغة في منابتها الأصيلة، فمرحلة النّمو التي شهدت الدّراسات البلاغية المنهجية، ثمّ مرحلة النّضج الّتي تبلورت فيها علوم البلاغة الثلاثة، وأخيرا مرحلة الاكتمال الّتي اعتنت بتحديد المصطلحات، وصياغة القواعد النهائية لهذا العلم الجليل.

إنّ الدارس لتاريخ البلاغة العربية يكتشف إسهامات طائفة كبيرة من العلماء الأفذاذ الذين كانت لهم بصمات واضحة في تشكيل هذا العلم الجليل، فقد امتدت مسيرة تكوين البلاغة في التراث اللغوي العربي عبر سلسلة طويلة تبدأ حلقاتها من اكتمال اللغة العربية، ثم تعددت هذه الحلقات وتوالت في أطوار مختلفة، وعصور متباينة ومرت بعوامل قوة وضعف إلى أن وقفت عند حدود واضحة ومعالم بارزة كما بينها السكاكي في (مفتاح العلوم)؛ وهذا البحث هو محاولة لتسليط الضوء على مبحث مهم من مباحث السكاكي البلاغية من خلال هذا المصنف؛ ومحاولة لكشف أثره البارز في ضبط علوم البلاغة العربية ومصطلحاتها.

لقد كان اختيار هذا الموضوع لأسباب، منها أن هذا العالم البلاغي قد أولى هذا الدرس عناية خاصة في كتابهِ مفتاح العلوم، فضلا عن كونه يمثل مفصلا مهما في تطور التأليف البلاغي المنهجي.

وكانت الدراسة تقوم على مباحث ؛ الأول منها (أ- السكاكي ثقافته وكتابه ، ب- الإنشاء في اللغة والاصطلاح)، أما المبحث الثاني فقد تناول (علم المعاني والانشاء)، وعرض الثالث (أساليب الإنشاء عند البلاغيين) ، ويدرس المبحث الرابع (التحول من البلاغة الى الاسلوبية) . وقد أوجزت في خاتمة البحث اهم النتائج مع قائمة تضم المصادر والمراجع .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

❖ المبحث الاول

أ - السكّاكيّ ثقافته وكتابه.

السكّاكيّ هو سراج الدين يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكّاكيّ الخوارزمي[(1)]، ولد في قرية من خوارزم في منتصف القرن السادس الهجري.

(1) ينظر: معجم الادباء :20/58 - 59 .

عمل على تحصيل علومه في مساجد خوارزم ومدارسها، وكان نصيبه الوافر في تعلم علم الكلام ودراسته، إلى جانب معرفته الفلسفة اليونانية، فضلا عن كونه معتزليا وأغلب أهل الاعتزال كانوا أصحاب منطق وكلام ((1)) .

إن الذي يعنينا من ذلك أن ثقافة السكّاكيّ التي كان لها حظٌ وافر من الفلسفة وعلومها أثرّت تأثيرا كبيرا في منهجه الذي يتناول به القضايا البلاغية.

لذلك كان السكّاكيّ من أشد علماء البلاغة ولعًا بتطبيق أساليب العرب على علوم الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وأول ما يلاحظ من هذا الأثر ربط البلاغة بعلم الاستدلال.

وكانت نتيجة ذلك أن ابتعدت البلاغة أو ابتعد السكّاكيّ بالبلاغة عن منهج عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) القائم على التذوق الفني والتحليل الأدبي، فاتجه بها نحو تحكم الفلسفة والمنطق ((2)).

على أن الوقفة المتأنية عند ذلك تحتم علينا أن ننظر بموضوعية إلى المنهج البلاغي القويم الذي يفيد البلاغة العربية فهو يجب أن يُفيد من الاتجاهين الأدبي والكلامي، لأن الأول يفيدنا في التحليل الفني وسبر غور نصوص الأدب، أما الثاني فينفعنا في المنهج، وفي التبويب، والتقسيم، الذي لا غنى للبلاغة عنه، اذن نحن نحتاج إلى عبد القاهر الجرجاني وأبي يعقوب السكّاكيّ معًا في الدرس البلاغي.

اما كتاب السكّاكيّ (مفتاح العلوم) فهو المدوّن الوحيد الذي وصل إلينا من مدوناته، ولعله أول كتاب عربي جمع ما بين علوم اللغة العربية على منهج وتبويب لم يسبق إليه، فعلوم العربية لم تكن منثورة في هذا الكتاب بل مبوّبة ومترابطة، وكان بناؤها محكمًا ويعود ذلك إلى العقلية المنطقية التي امتلكها السكّاكيّ، إذ قسّم كتابه على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول في علم الصرف.**
- **القسم الثاني في علم النحو.**
- **القسم الثالث في علمي المعاني والبيان.**

(1) ينظر: مفتاح العلوم ، المقدمة: ج ، ينظر البلاغة عند السكّاكيّ: 197 .
(2) ينظر: البلاغة عند السكّاكيّ: 262 – 263 . أساليب الطلب عند النحوين والبلاغيين 73.

وقد أضاف إلى هذه الأقسام ما راه مكملًا من الاستدلال والعروض والقافية. والحق أن السكّاكيّ قد قدّم للبلاغة العربية خدمة كبيرة عن طريق وضع كثير من مصطلحاتها وإقامة عدد من حدودها، وتقسيم أغلب فروعها وأبوابها، ومن الإجحاف بحق هذا العالم أن يوصف بأنه عقّد البلاغة وصيرها جافة، وأن الإيغال في هذه النظرة ربما يكون طلب الدعة والراحة وعدم تكلف المؤونة في البحث والاستقصاء، فضلًا عن ذلك فإن كتاب (مفتاح العلوم) كان قصده تعليميًّا في المقام الأول والتعليم يقتضي التقسيم، والتبويب، ووضع الحدود، وما سوى ذلك.

ومن أهمية كتاب (مفتاح العلوم) أنه بقي محورا للتأليف البلاغي فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والايضاح والتلخيص والتهذيب .

ب – الإنشاء في اللغة والاصطلاح.

الإنشاء في اللغة مصدرٌ للفعل أنشأ وله معانٍ منها الإيجاد والاختراع والخلق والشروع ((1))، أما في اصطلاح البلاغيين فقد كان لمبحث الإنشاء مراحل متعددة في تطور دلالته وفي صياغة عنوانه، وكان لعلماء البلاغة المتقدمين والمتأخرين وقفات عند أسلوب أو اكثر من أساليب الإنشاء وذلك في اثناء تقسيمهم الكلام، على أنهم – كغيرهم من علماء العربية– قد بحثوا في هذا الموضوع تحت عنوان (الطلب).

فمن المتقدمين نجد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) وهو– مؤصل علمي المعاني والبيان – يلمح إلى ذلك في أثناء حديثه عن التقديم والتأخير في الاستفهام والخبر يقول: (واعلم أنَّ معك دستورا لك فيه، إن تأملت، غنى عن كل سواه، وهو أنه لا يجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه في الاستفهام معنى لا يكون له ذلك المعنى في الخبر، ذاك أن الاستفهام استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك))((2)).

فالاستفهام هو أحد فروع الإنشاء وأسلوب من أساليبه، لكن عبد القاهر الجرجاني عندما أراد أن ينسبه إلى أصله قال: إنه طلب، وربما يكون ابن قتيبة (ت 276 هـ) قد سبقه إلى ذلك في تقسيم الكلام إذ يقول: ((الكلام أربعة : أمر، وخبر، واستخبار، ورغبة)) ((3)) فالاستخبار هنا هو الاستفهام أما الرغبة فهي التمني.

(1) لسان العرب: مادة نشأ :1/170 .
(2) دلائل الاعجاز: 140 .
(3) ادب الكاتب: 11 .

❖ المبحث الثاني

علم المعاني والإنشاء.

لا شكّ في أن علماء البلاغة العرب قد أثروا بحث الخطاب اللغوي ودراسته من زوايا ثلاث هي (فنيّة الخطاب، دلالته، تناسقه اللفظي) ولعل هذا ما تبناه أبو يعقوب السكّاكيّ عندما قسّم علوم البلاغة على (معانٍ وبيان ومحسنات) ((1))، ويبدو أن تقسيم السكّاكيّ هذا مبني على أنه نظر إلى علوم البلاغة نظرة فلسفية. وأن الدلالة قد مُثّلت في (علم المعاني) الذي عّرفه السكّاكيّ بقوله: ((هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره)) ((2)) .

ويعد علم المعاني منفذًا مهمًّا لمن يرغب الدخول إلى مكنونات النص الأدبي ليستنطق طاقاته الدلالية وصولا إلى المبتغى.

فضلا عن ذلك فإن لعلم المعاني أهمية كبرى، تكمن فيما يكتنزه كثير من القدرات تعزز عملية التأمل وتساعد على توليد فضاءات معرفية تمنح العقل الانساني رقيًّا إبداعيًّا يستطيع بأدواتهِ النقدية أن يلتمس تلك الأهمية((3)).

والحق أن (علم المعاني) يقوم فيما يقوم عليه من ثنائية رئيسة متمثلة بـ (الخبر والطلب والإنشاء) وقد بنى البلاغيون التفريق بينهما على أن احتمال الصدق والكذب وعدم احتمالهما معيارٌ منطقي لا فني((4))، على أن المنهج البلاغي القويم لا يبيح الفصل القسري بين الأسلوبين (الخبري والانشائي) في استنطاق النصوص الأدبية بل يجب أن يُنظر اليهما متآزرين في الصياغة والدلالة لأنه ((لا يمكن تفتيت الأسلوب للقول إنه هنا إنشائي غرضه كذا وهنا خبري غرضه كذلك، وإنما كينونته العامة تكون دائما أثرى وأخصب)) ((5)).

أما أبو يعقوب السكّاكيّ فقد نظر إلى الطلب على أنه القانون الثاني في علم

(1) البلاغة عند السكّاكيّ: 122، ينظر: مفتاح العلوم : 161، 162، 435 .
(2) مفتاح العلوم: 161 .
(3) ينظر: أساليب المعاني في القران الكريم : 70 .
(4) ينظر: الأصول: 311 .
(5) فلسفة البلاغة: 126 .

المعاني[1]، وذلك بعد أن نبه إلى ((أن الخبر والطلب بعد افتراقهما بحقيقتهما يفترقان باللازم المشهور، وهو احتمال الصدق والكذب)) [2]. وهو في بدء كلامه على القانون الثاني يقرر ((أن حقيقة الطلب معلومة مستغنية عن التحديد)) [3]، أي: إنه لم يضع للخبر أو الطلب تعريفا جامعا مانعا قاطعا- على لغة المناطقة - لأنه يرى أن الخبر والطلب مستغنيان عن التعريف الحدي من جهة، ومن جهة اخرى فهو يرى أنهما قد عُرّفا مسبقًا[4] .

ويقسّم السكّاكيّ الطلب على نوعين: أحدهما لا يستدعي في مطلوبهِ إمكان الحصول وحصره في التمني، والنوع الآخر هو ما يستدعي فيه إمكان الحصول وحصرهُ في الاستفهام والأمر والنهي والنداء[5]، وقد نهج البلاغيون بعد السكّاكيّ نهجه ولكنهم استعملوا مصطلح (الإنشاء) بدلًا من مصطلح (الطلب)، وأدخلوا فيه الإنشاء غير الطلبي وهو (مالا يستدعي مطلوبا)[6] ، وأساليبه متعددة منها صيغ المدح، والذم، والتعجب وصيغ العقود ... وما إلى ذلك. ولكن لم تنل هذه الاساليب اهتمامًا كبيرًا من البلاغيين؛ (وذلك لقلة الاغراض المتعلقة بها ولأن معظمها أخبارٌ نقلت عن معانيها الأصلية، أما الإنشاء الذي يعنون به فِهو الطلبي لما فيه من تفنن في القول)[7].

إن مما يحسب للسكّاكيّ أنه نبّه على مزيّة في الطلب لها قدر كبير من الأهمية، هي أن بنية الطلب بنية (توليدية)، وذلك بقوله (إنما نتكلم في مقدمة يسند عليها المقام من بيان، ما لا بد للطلب، من تنوعه، والتنبيه على أبوابه في الكلام، وكيفية توليدها لما سوى أصلها)[8]، وكذلك في قوله بشأن أبواب الطلب (متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل، تولد منها ما ناسب المقام)[9] .

اذن الطلب عند السكّاكيّ يعتمد التوليد أساسًا لأبوابه الفرعية على معنى وجود (أصل) للمعنى، فهو لا يؤدي مهمّته الانتاجية في حدود السياق الذي يحتملهُ، وإنما يعمل السياق

(1) ينظر: مفتاح العلوم: 303 .
(2) م . ن: 165.
(3) م . ن: 302.
(4) ينظر: م . ن: 165.
(5) ينظر: م . ن: 303-302.
(6) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها :1 /334 .
(7) م . ن: 1/334.
(8) مفتاح العلوم : 302 .
(9) م . ن: 304.

على توليد ناتج إضافي، أي: إن الأصل الوضعي يظل في خدمة السياق، وبخاصة السياق الخارجي الذي يضم طرفي الاتصال كما يضم الظروف المصاحبة ((1)).

السكّاكيّ بعد أن يذكر نوعي الطلب، ينظّر فلسفيا للطلب قائلًا : (والمطلوب بالنظر إلى أن لا واسطة بين الثبوت والانتفاء يستلزم انحصاره في قسمين : حصول ثبوت متصور، وحصول انتفاء متصور، وبالنظر إلى كون الحصول ذهنيًّا وخارجيًا يستلزم انقسامًا إلى أربعة اقسام : حصولين في الذهن وحصولين في الخارج، ثم اذا لم يزد الحصول في الذهن على التصور والتصديق لم يتجاوز أقسام المطلوب الستة : حصول تصور أو تصديق في الذهن وحصول انتفاء تصور أو تصديق فيه، وحصول ثبوت تصور أو انتفاؤه في الخارج وطلب حصول التصور في الذهن لا يرجع إلّا إلى تفصيل مجمل أو تفصيل مفصل بالنسبة، ووجه ذلك أن الانسان اذا صح منه الطلب بأن إدراك بالإجمال لشيء ما أو بالتفصيل بالنسبة إلى شيء ما ثم طلب حصولا لذلك في الذهن وامتنع طلب الحاصل، توجه إلى غير حاصل وهو تفصيل المجمل أو تفصيل المفصل بالنسبة)((2)).

إن قول السكّاكيّ هذا يمثّلُ عرضًا لمجموعة من المرتكزات الدلالية يستند عليها الحديث عن بنية الطلب. ومن هذه المرتكزات((3)) :

أ- إن بنية الطلب بنية توليدية على المستوى السطحي أو على مستوى انتاج المعنى، أي: إنها لا ثباتَ لها شكلًا أو مضمونًا.

ب- التعامل المألوف أو الإبداعي مع هذهِ البنية يقتضي وجودَ تصور إجمالي وتفصيلي لما تريد إنتاجهِ هذه البنية.

ج- إن هذا التصوّر يتمثّلُ في استدعاءِ مطلوب دلاليّ واضح لا يكون حاصلًا وقت الطلب.

د- إن الحركة الذِّهنية في استدعائها لبنية الطلب تدور بين الثبوتِ المتصوّر أو حصول الانتفاء.

هـ- إن هذا الحصول له مستويان الأول: المستوى الذهنيّ الداخليّ، أما الآخر فهو

(1) ينظر: البلاغة العربية قراءة اخرى : 278 .
(2) مفتاح العلوم: 303 .
(3) ينظر: البلاغة العربية قراءة اخرى : 278 – 279 .

المستوى الخارجي الذي يطابقُ المستوى الداخليّ من حيث بناؤه الشكليَّ ومن حيث انتاجيته الدلاليَّة.

و- وهذا التطابق له أربعة أشكال هي:

1 - حصول تصوّر أو تصديق في الذهن.

2 - حصول انتفاء تصوّر أو تصديق في الذهن.

3 - حصول تصوّر في الخارج.

4 - حصول انتفاء في الخارج.

إن هذا الإدراك لبنية الطلب يمثّل وعي البلاغيّين، بأنها ليست إلا انعكاسا للحركة الذهنية، وأن حركتها وطبيعتها التشكيلة تأتي على وفق منطقها الإدراكيّ، وبما أن حركة الذهن خالصة لا يمكن الوقوف على حقيقتها، فإنَّ الصياغة الخارجية تصبح الوسيلة الوحيدة لإدراكها وفهم متطلباتها الصياغية.

وتظهر ألفاظ الفلسفة والكلام واضحة في قول السكّاكيّ، من مثل هذه العبارات ((حصول ثبوت متصور، حصول انتفاء متصور، الحصول في الذهن، والحصول في الخارج وكذلك إدخال بحوث التصديق والتصور وغير ذلك)) [(1)].

لم يكن السكّاكيّ معنيا ببحث أساليب الإنشاء غير الطلبي بل اقتصر بحثه على الإنشاء الطلبي، ولعل هذا ما دفعه إلى تسمية قسيم الخبر (الطلب) [(2)].

والحق أن السكّاكيّ كان على قدر كبير من الدقة حين أطلق مصطلح الطلب على الإنشاء، لأنه كان معنيا ببحث الإنشاء الطلبي فحسب اذ وجد فيه ضالته في كونه القسيم الآخر لموضوع الخبر، أما الإنشاء غير الطلبي ((فلم يشر إليه لعله كان يرى أن هذا النوع من الإنشاء ليس إلا خبرا نقل إلى أسلوب الإنشاء فأهمل ذكره))[(3)]. إن ما يُلحظ في بحث السكّاكيّ لقانون الطلب - كما سماه - ضمن مقدمته التي استمدها من الفهم المنطقي عن التصور والتصديق، وما يحصل في الذهن وما يحصل في الخارج. وهذا الأمر ربما يكون واضحًا في أسلوب الاستفهام، إذ التصديق فيه هو إدراك النسبة

(1) ينظر: البلاغة عند السكّاكيّ: 169 .
(2) ينظر: مفتاح العلوم : 303 .
(3) البلاغة عند السكّاكيّ : 306 .

أي: تعينها مثل (أقام محمد ؟) فالجواب يكون (بنعم أو لا).

أما التصور فهو إدراك المفرد أي: تعيينه في مثل (أقام محمد أو قعد) فالجواب هنا يكون بـ (قام أو قعد)[1].

❖ المبحث الثالث

أساليب الإنشاء عند السكاكي

يمكن أن نقف عند أساليب الطلب على وفق ما رتّبها السكّاكيّ (التمني، الاستفهام، الأمر، النهي، النداء).

أولا: التمني.

يعدُ التمني النوع الأول من الطلب وإن أكثر البلاغيين[2] – ومنهم السكّاكيّ – قد وافقوا النحويين في أن التمني من أقسام الإنشاء الطلبي يستعمل في الممكن والمستحيل ويشترط فيه إن كان مستعملا في الممكن أن لا يكون لك توقع أو طمع في وقوعه يقول السكّاكيّ : ((أما النوع الأول من الطلب فهو التمني، أو ما ترى كيف تقول: ليت زيدا جاءني، فتطلب كون غير الواقع فيما مضى أو واقعًا فيه مع حكم العقل بإمتناعه، أو كيف تقول: (ليت الشباب يعود) فتطلب عود الشباب مع جزمك بأنه لا يعود أو كيف تقول: (ليت زيد يأتيني) أو(ليتك تحدثني) فتطلب إتيان (زيد) و حديث صاحبك في حال لا تتوقعها ولا لك طماعية في وقوعها، إذ لو توقعت أو طمعت لاستعملت (لعل أو عسى)))[3] .

أما سبب تقديم التمني عند السكّاكيّ على أنواع الطلب الأخرى، فهو لحصرها حصرًا منطقيًا، فانفرد التمني في النوع الأول الذي لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول، أما النوع الثاني فكان يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وفيه الاستفهام والأمر والنهي والنداء.

وهذا يعني أن بنية التمني تتعلق إنتاجيًا بما لا يمكن حصوله، وليس هناك مطمع فيه، ومن هنا صح تعلقها بالزمن الماضي، من حيث تمني وقوع حدث فيه، وهو غير ممكن تنفيذهُ من مثل قولنا: ليت محمدًا جاءني امس، فالفعل هنا يحكم بامتناع الوقوع

(1) ينظر: مفتاح العلوم : 308– 309 .
(2) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة : 183 ، ينظر: معترك الاقران في اعجاز القران 1/337.
(3) مفتاح العلوم: 303 .

هذا المجيء لأن زمنه قد انتهى، فإذا حدث تعديل في المدرك الداخلي ليسمح بإمكانية الوقوع فإن (ليت) تغيب عن السياق لتتركه لأداة أخرى تحتمل هذا الإدراك هي (لعلّ) على معنى أن التمني يصبح (رجاء) ليعمل على ترقب الحصول وتوقعه في مثل قولنا: (لعل لي مالًا أنفق منه) إذا كان هناك مطمع في مجيء هذا المال. ويكون التحول ثلاثيًّا على النحو الآتي: (ليس عندي مال أنفق منه، أرجو أن يكون لي مال أنفق منه، لعل لي مالًا أنفق منه) فالبنية تتحرك من منطقة النفي وصولا إلى منطقة الاثبات (المرجو) لا لإثبات المتحقق أو الواقع((1)).

والسكّاكيّ يؤكد فكرة توليد المعاني في البنى الإنشائية، يقول: ((متى امتنع إجراء هذه الأبواب على الأصل تولد منها ما يناسب المقام)) ((2))، والحق إن محور اهتمام البلاغيين بأساليب الطلب لا يتجه إلى كونها بنى إنشائية طلبية بقدر ما يتجه إلى تجاوز الصيغ النحوية وصولا إلى المقاصد التوليدية، لأن أساليب الطلب لا تقف عند أصل المعنى بل تسعى إلى انتاج معان تتجاوز البناء اللغوي.

ثانياً: الاستفهام.

يرى السكّاكيّ أن الاستفهام إما تصديق أو تصور، فإن كان لإدراك النسبة ومعرفتها سمي تصديقًا، وإن كان لمعرفة المفرد سمي تصورًا ((3)).

ويفرق السكّاكيّ بين الاستفهام وأنواع الطلب الاخرى (الأمر، النهي، النداء) ويعدّ هذا الفرق واضحًا بقوله: ((إنك في الاستفهام تطلب ما هو في الخارج ليحصل في ذهنك نقش له مطابق، وفيما سواه تنقش في ذهنك ثم تطلب أن يحصل له في الخارج مطابق، فنقش الذهن في الأول تابع وفي الثاني متبوع)) ((4)) .

والحق أن هذه نظرة دقيقة في التفريق بين الاستفهام من جهة وأنواع الطلب الأخرى (الأمر، النهي، النداء) من جهة أخرى ((ودقتها ترجع إلى اتكائها على حركة المعنى في البنيتين، والربط بين المستوى السطحي والمستوى العميق فيهما، وهذا الربط الذي يكشف التغاير في حركة المعنى، إذ إن بنية الأمر تتجه فيها هذه الحركة من الذهن إلى الخارج، أي: من العمق إلى السطح، أما بنية الاستفهام فتتجه الحركة فيها عكس ذلك،

(1) ينظر: البلاغة العربية قراءة أخرى: 281 .
(2) مفتاح العلوم: 304 .
(3) م . ن: 303.
(4) م . ن: 304.

حيث تتجه من الخارج إلى الذهن، أي: من السطح إلى العمق)) [(1)].

فمثلا نرى أن المقصود من القول (هل قام محمد) حصول القيام الذي في الخارج في ذهن المتكلم ، والمقصود من (قم) حصول القيام الذي في الذهن في الخارج أي أن حركة المعنى في البنيتين ضدية .

لقد تحدث السكّاكيّ عن أدوات الاستفهام ووقف عندها وقفاتٍ طويلة، فمن ذلك أنه يرى أن سبب لزوم أدوات الاستفهام صدر الكلام هو كون الاستفهام طلبًا والطلب مما يهم المخاطب ويعنيه. يقول وهو يسمي أدوات الاستفهام كلمات: ((واذ قد عرفت أن هذه الكلمات للاستفهام، وعرفت أن الاستفهام طلب، وليس يخفى أن الطلب إنما يكون لمن يهمك و يعنيك شأنه ... وقد سبق أن يكون الشيء مهمًا جهة مستدعية لتقديمه في الكلام، فلا يعجبك لزوم كلمات الاستفهام صدر الكلام ووجوب التقديم في نحو : كيف زيد ؟ واين عمرو؟ ومتى الجواب؟ وما شاكل ذلك)) [(2)].

ويرى أيضًا أن أدوات الاستفهام كلها إنما هي كلمات موضوعة للاستفهام وهو لم يذكر ما كان منها أصلا أو غير أصل في الاستعمال يقول ((وللاستفهام كلمات موضوعة، وهي: الهمزة و أم وهل و ما ومن وأي وكم وكيف و أين وأنّى و متى و إيان) [(3)]، ثم يقسم هذه الأدوات على ثلاثة أنواع[(4)]:-

1 - ما يختص طلب حصول التصور.

2 - ما يختص طلب حصول التصديق.

3 - ما لا يختص بواحد من النوعين إنما هو للتصور والتصديق.

ثالثًا: الأمر.

هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، ويذكر السكّاكيّ أن ((الأمر عبارة عن استعمالها أعني استعمال نحو لينزل، انزل، نزال، صه، على سبيل الاستعلاء)) [(5)]، وهو هنا يقصد الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر، وفعل الأمر، والمصدر النائب

(1) البلاغة العربية قراءة أخرى: 285 .
(2) مفتاح العلوم : 317 .
(3) م . ن: 308.
(4) م . ن: 308.
(5) م . ن: 318.

عن فعل الأمر، واسم فعل الأمر. ويشير إلى شرط الاستعلاء لأن هذا الأخير يقتضي حضور طرفين: الآمر والمأمور، والأول يختص بالعلو على الثاني.

ويذهب السكّاكيّ إلى أن هذه الصيغ تدل على الوجوب، واستدل على ذلك يتبادر معنى الأمر إلى الذهن عند استماع نحو (قم) أو (ليقم) وتوقف ما سواه، على اعتبار القرائن يقول عن صيغ الأمر: (فالأظهر أنها موضوعة كذلك، وهي حقيقة فيه ليتبادر الفهم عند استماع نحو: قم وليقم زيد إلى جانب الأمر، وتوقف ما سواه من الدعاء، والالتماس، والندب، والإباحة، والتهديد، على اعتبار القرائن ...)[(1)]

والحق أن كلام السكّاكيّ دقيق في ذلك، فحقيقة صيغة الأمر أها موضوعة للوجوب، أما المعاني الأخرى فهي خارجة عن هذا الأصل، وهذا الرأي يقود إلى المحافظة على وحدة تسمية الصيغة وعلى العكس من ذلك القول بأن الصيغة مشتركة بين الوجوب والندب والإباحة... فإنه يقود إلى تجزئة الصيغة إلى تسميات متعددة[(2)].

أما الزمن الذي تفتضيه صيغة الأمر المطلقة، فقد ذهب السكّاكيّ إلى أن الأمر حقه الفور بمعنى أنه إذا قيل: (افعل) فمعناه افعل فورًا، ولا يدل على التراخي إلا بقرينة، واستدل على ذلك بأن الفور هو الظاهر من الطلب، لأن مقتضى الطبع في كون الشيء مطلوبًا أنه لا يطلب حتى يحتاج لوقوعه في الحين، وهذا شأن الطلب في الجملة عند الانصراف وكل ما يعرض من غير هذا فليس من مقتضى الطلب.

واستدل كذلك بأن يتبادر الفهم عند الأمر بشيء بعد الأمر بخلافه إلى تغير الأمر الأول دون الجمع أو التراخي ، يقول ((والأمرُ والنهي حقهما الفور، والتراخي يوقف على قرائن الأحوال لكونهما للطلب، ولكون الطلب في استدعاء تعجيل المطلوب أظهر منه في عدم الاستدعاء له عند الإنصاف، والنظر الى حال المطلوب بأخويها وهما الاستفهام والنداء منبه على ذلك صالح، ومما يُنبه على ذلك تبادر الفهم، إذا أمر المولى عبده بالقيام ، ثم أمره قبل أن يقوم بأن يضطجع وينام حتى المساء إلا أن المولى غيّر الأمر دون تقدير الجمع بينهما في الأمر وإرادة التراخي للقيام، وكذا استحسان العقلاء عند أمر المولى عبده بالقيام أو القعود، أو عند نهيه ايّاه، إذا لم يتبادر إلى ذلك ذمه)) [(3)] .

(1) م . ن: 318 – 319.
(2) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : 101 .
(3) مفتاح العلوم : 320 , ينظر: اساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: 104.

ويبدو أن الكلام حظه من الدقة والصواب ضئيل إذ إن ثمّة عوامل كثيرة تتحكم في الزمن الذي تقتضيه صيغة الأمر، ولعلماء الأصول وقفات طوال في ذلك.

أما دلالة الأمر على المقدار فقد تناول السكّاكيّ ذلك وهو يرى أن الامر يكون للمرة اذا كان الطلب به راجعًا إلى قطع الواقع كقولك في الأمر للساكن (تحركْ) أما دلالته على الاستمرار فهو عندما يكون الطلب به راجعًا إلى اتصال الواقع كقولك في الأمر للمتحرك: تحرك، يقول: (وأمّا الكلام في أن الأمر أصل في المرة أم في الاستمرار، وأن النهي أصل في الاستمرار أم في المرة، كما هو مذهب البعض، فالوجه هو أن يُنظر إن كان الطلب بهما راجعا إلى قطع الواقع، كقولك في الأمر للساكن: تحرك، وفي النهي للمتحرك: لا تتحرك) ((1)).

رابعاً: النهي.

يشترط السكّاكيّ وجود الاستعلاء في النهي، وهو عين ما اشترط في الأمر قائلا: ((والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل الاستعمال: لا تفعل أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب))((2))، والسكّاكيّ ينظر دائما إلى توليد الدلالات المضافة وانتاجها وقد كان للنداء حظّ من ذلك يقول : ((ثم إن استعمل على سبيل التضرع، كقول المبتهل إلى الله لا تكلني إلى نفسي، سمي دعاء، وإن استعمل في حق المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء سمي التماسًا)) ((3)). أما دلالة النهي على الزمن والمقدار فقد ذهب السكّاكيّ إلى أن النهي مثل الأمر في ذلك((4)) .

خامساً: النداء.

هو ضمن أنواع الطلب التي بحثها السكّاكيّ وهو يرى أن في قولك: (يا زيد) طلبا منك لإقباله عليك((5)). وعند بحثه أدوات النداء واستعمالاتها ومعانيها((6)) في قسم (علم المعاني) من كتابه (مفتاح العلوم) يحيل القارئ إلى علم النحو من الكتاب نفسه للوقوف على ما يتعلق بالنداء من حروفه وتفصيل الكلام في معانيه.

(1) م . ن: 321.
(2) م . ن: 320.
(3) م . ن: 320.
(4) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين : 112 – 113.
(5) ينظر : مفتاح العلوم : 525 .
(6) م . ن: 549.

ويرى أن الأدوات (يا، أيا، هيا) تستعمل لنداء البعيد، وأن استعمالها في نداء القريب إنما هو من المجاز الذي يراد به معنى (الاستبعاد) أو (التعظيم) وإن (أي، الهمزة) لنداء القريب وقد استعمل فيه (يا) أيضا و (وا) للندبة خاصة((1)).

ويرى ايضا أن النداء قد يستعمل في معانٍ أخرى مثل معنى (الإغراء) كقولك لمن أقبل يتظلم: يا مظلوم تقدم، وأنك اذا اردت ترغيب المخاطب في شكوى الظلم وحثه على زيادة التظلم وبث شكواه((2)) .

ومن الدلالات المنتجة الأخرى لبنية النداء يذكر السكّاكيّ دلالة الاختصاص وذلك في قوله: (ولكن ههنا نوع من الكلام، صورته صورة النداء، وليس بنداء، فننبه عليه، وتلك الصورة هي قوله: (ما أنا أفعل كذا أيها الرجل) و (نحن نفعل كذا ايها القوم)... يراد بهذا النوع من الكلام الاختصاص على معنى : أنا افعل كذا متخصصا بذلك من بين الرجال ، ونحن نفعل كذا متخصصين من بين الأقوام) ((3)) .

❖ المبحث الرابع

التحول من البلاغة الى الاسلوبية

إن القراءة البلاغية في التراث النقدي لم تشهد تطوراً تجديدياً ، يناسب مع التطور الفكري واساليب التغير اللغوي .

ولما دخلنا عصر الحداثة، اتسعت الهوة بين تنوع اساليب التغير اللغوي وبين قراءة النص بحثاً عن معنى أو استقراءً لما يوحي به ونقده وفق معيار نقدي بدائي، قائم على النظرة المعيارية التعليمية في التقسيم ووضع مسميات كل ذلك كان تمهيداً لحلول الأسلوبية في مجال الابداع كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة((4)) .

فجاءت الاسلوبية لتعلن أنها (تحليل لغوي موضوعه الاسلوب وشرطه الموضوعية)((5))، فهي فرع من اللسانيات الحديثة، تختص بالتحليلات التفصيلية للاساليب الأدبية، ويمكن القول هي بلاغة حديثة((6)) تسلط الضوء على العلاقات التكوينية للنص.

(1) م . ن: 550.
(2) م . ن: 527.
(3) م . ن: 323.
(4) ينظر: في الاسلوب الادبي علي بو ملحم : 172.
ينظر: البلاغة والاسلوبية : 259 .
(5) دليل الدراسات الاسلوبية , جوزيف ميشال شريم : 37 – 38 , ينظر: علم الاسلوب صلاح فضل :156.
(6) ينظر: البلاغة والاسلوبية , يوسف ابو العدوس : 16, وينظر: الاسلوبية وتحليل الخطاب , د. منذر عياشي:38 .

إن ظهور الاسلوبية نابع من معطيات عصر الحداثة ، فقصور البلاغة قد اتاح للأسلوبية أن تبدأ كأنها وريث شرعي لها لأنها (وقعت في دراستها عند حدود التعبير ووضع مسمياته ويصنفها وتجمدت عند هذه الخطوة، ولم تحاول الوصول الى بحث العمل الادبي الكامل، كما لم يتسنَ لها بالضرورة دراسة الهيكل البنائي لهذا العمل ، وكان ذلك بمثابة تمهيد لحلول الاسلوبية في مجال الابداع كبديل يحاول تجاوز الدراسة الجزئية القديمة واقامة بناء علمي يبتعد عن الشكلية البلاغية التي ارهقتها مصطلحات البلاغيين)[1] ، كما كانت عند السكاكي صورة مثلت حال الجمود المنهجي، إذ تقرأ النص الادبي مجتزأ ببيت أو بيتين أو قطعة شعرية (في حالات نادرة اذا كان النص من الشعر) ، كما تقرأ النص متجزأً بجملة أو فقرة أو فقرتين في حالات نادرة اذا كان النص من أجناس النثر تحت ثلاثة مستويات (المستوى المكونات اللغوية ، ومستوى المكونات التصويرية ، ومستوى المكونات الايقاعية)، ودراسة كل مستوى كانت دراسة سطحية وليست معمقة وهي نسيج من احكام مقاليه تقويمية .

أما في ما خص مكونات النص اللغوي تحت ضوء الدراسة الاسلوبية الحديثة فنلحظ خمسة مكونات هي المعجمي والايقاعي والتركيبي (الدلالي) والبنائي والتصويري ، وقد اشار الى ذلك سائر البلاغين من بينهم ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة وابن الاثير في المثل السائر ، غير أن العرض كان تقويمياً ، يسير وفق قواعده ومحدداته ، ولم يكن اسلوبياً يدرس الابعاد العميقة لبنية النص[2] .

وعلى وفق ذلك (أصبح محتماً أن يتجه البحث في البلاغة القديمة على نحو يربطها بالبحث الاسلوبي الحديث ، والافادة من ذلك من كل العناصر الموروثة التي تمثل في جوهرها قيماً تعبيرية ، تصلح كأساس لأسلبه البلاغة ، ومن هذا المنطلق كان محتماً أن تعرض الامكانات الاسلوبية التي وجدت بشكل أو بآخر داخل مباحث البلاغة لا باعتبارها توصيات وتقنيات ولكن باعتبارها طاقة لغوية داخل نسيج التعبير الادبي)[3] .

ومن ثَمَ لم يكن تحول البلاغة أي الاسلوبية أمراً مباشراً أو سريعاً وإنما أخذ قسطاً وافراً من الزمن وكثير من الجهود البلاغية التي افضت الى هذا التحول والذي ينسجم وطبيعة تطور العصور وليس من علوم اللغة فحسب وانما في سائر العلوم التطبيقية والانسانية .

(1) البلاغة والاسلوبية , محمد عبد المطلب :9.
(2) ينظر: اسلوبية البيان العربي , رحمن غركان : 36.
(3) البلاغة والاسلوبية : 9 .

الخاتمة

بعد هذه المقاربات البلاغية بشأن السكاكي وكتابه مفتاح العلوم واختيار مبحث الإنشاء من بين المباحث الكثيرة في كتابه، تمخض البحث عن النتائج الآتية:

1 – إن أبا يعقوب السكّاكيّ وكتابه (مفتاح العلوم) تعرضا إلى ظلم واجحاف كبيرين عن طريق وصفهما بالتعقيد وجفاف الأسلوب، والبحث لا يعدم وجود مثل هذه الصفة، ولكنها لم تكن بذلك الحجم الذي تشير اليه أغلب الدراسات، فضلا عن أنه كان معنيا في كتابه أن يضع الحدود ويقسم الأبواب قدر الإمكان لأن كتابه تعليمي بالدرجة الأولى.

2 – لقد أكّد السكّاكيّ أن الطلب (بنية توليدية)، وهذه الخصيصة في الطلب يقف عندها السكّاكيّ سواء في كلامه على الطلب عمومًا أو في عرضه لأساليب الطلب.

3 – لم يذكر السكّاكيّ الإنشاء غير الطلبي، بل وقف عند الإنشاء الطلبي فحسب، ولعل هذا ما دعاه إلى أن يسميه (الطلب) وتسويغ ذلك أن السكّاكيّ – وأغلب البلاغيين – لا يجدون في أساليب الإنشاء غير الطلبي معاني مضافة وهي عندهم اختيار في أصلها.

4 – لعل من المسوغات التي دعت السكّاكيّ الى هذا المنحى الذي وصف تعسفاً (بالمدرسي)، أنه أراد أن يوجه جهده الى الناشئة في سبيل اكسابهم مهارات بلاغية، إذ إنه لحظ ضعفاً في هذه المهارات في زمنه وهذا الامر يحسب له وليس عليه .

قائمة المصادر والمراجع

1- أدب الكاتب، ابن قتيبة ت 276 هـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط 4 المكتبة التجارية مصر 1963.

2- أساليب الطلب عن النحويين والبلاغيين، د. قيس اسماعيل الاوسي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، بيت الحكمة 1988.

3- أساليب المعاني في القرآن الكريم، جعفر الحسيني، ط1 (1428هـ – 2007م) .

4 – أسلوبية البيان العربي (من أفق القواعد المعيارية الى آفاق النص الابداعي) ، ط1 ، 2008

5 – الاسلوبية والاسلوب ، عبد السلام المسدّي ، دار العربية للكتاب ، ط3 .

6 – الاسلوبية وتحليل الخطاب ، د. منذر عياشي ، ط1 (1436هـ – 2015) .

7 – الأصول، تمام حسان، عالم الكتب (1425 هـ – 2004م).

8 – الأعلام، خير الدين الزركلي، ط2، القاهرة .

9 – البلاغة عند السكاكي، د. احمد مطلوب ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ط1 ، (1384 هـ – 1964م) .

10 – البلاغة والاسلوبية ، د. محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، ط1 ، القاهرة 1984م.

11 – البلاغة والاسلوبية (مقدمات عامة) ، يوسف ابو العدوس ، المكتبة الاهلية ، ط1 ، 1999م .

12 – البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، ط1 ، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر (1997م) .

13 – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ت (471هـ) قراءه وعلق عليه ابو فهد محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة، (1984م) .

14 – دليل الدراسات الاسلوبية ، جوزيف ميشال شريم ، ط2 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، (1436 هـ – 1987م) .

15 – علم الأسلوب ، مبادؤه واجراءاته ، د. صلاح فضل ، ط1، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1992م.

16 – علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبي' المحدثين، د. طالب محمد اسماعيل الزوبعي، منشورات جامعة بنغازي، ط1، (1997م) .

17 – فلسفة البلاغة، د. رجاء عيد، ط2 دار المعارف الاسكندرية.

18 – في الاسلوب الادبي ، د. علي بوملحم ، ط2، المكتبة الجامعية، دار مكتبة الهلال ، بيروت، 1999م.

19 – لسان العرب ابن منظور، ت(711هـ)، ط1، مطبعة دار صادر للطباعة والنشر (د . ت) .

20 – معاني الحروف، ابو الحسن الرماني، دار صادرة 1986.

21 – معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق احمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابلي الحلبي وشركاه، مصر.

22 – معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دمشق (1378هـ – 1959م) .

23 – معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. احمد مطلوب، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (1407 هـ– 1987م) .

24 – مفتاح العلوم أبو يعقوب السكاكي، ت (626هـ)، تحقيق د. أكرم عثمان يوسف، دار الرسالة، ط1، (1400هـ – 1981م) .